مهذّب

دليل الهدى
من سيرة المصطفى

أعدّ الأصل وقدّمه:

د. يحيى اليحيى

المدينة النبوية

تهذيب

سعد بن عبد الرحمن الحصين

عفا الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة .(هذه خطبة النبي ﷺ في أكثر أحيانه، وكان يعلمها أصحابه، فيما رواه عنه عدد من المحدثين، مسلم واحمد وأبو داود والنسائي والبيهقي والحاكم وغيرهم).

المقدمة

إن سنة رسول الله ﷺ وحي من الله تعالى إلى رسوله ﷺ لبيان الدين، ولا طريق إلى الهدى والجنة إلا طريقه ﷺ، ولا يمكن أن تعرف يا أخي المسلم دين الإسلام الحق ويصح لك إسلامك إلا باتباع الرسول ﷺ، ومعرفة سبيله وهديه وعمله وأمره ونهيه ومنهجه وسنته، وعبادة الله بشرعه.

لقد صلى وصام، وحجّ واعتمر، وسالم وحارب، وأقام وسافر، وباع واشترى، وأخذ وأعطى، وما عاش ﷺ وحده، ولا غاب عن الناس يوماً واحداً، ولا سافر وحده مرة واحدة، بل كان معه في كل أحيانه أحد أصحابه وأهل بيته يبلّغون عنه شرع الله، وقد لاقى صنوف الأذى، وقاسى أشد أنواع الظلم، وكانت العاقبة والنصر له.

بعث على فترة من الرسل، وضلال من البشر، وانحراف في الفطر، وواجه ركاماً هائلاً من الضلال والانحراف والبعد عن الله، والإغراق في الوثنية.

فاستطاع بأمر الله وعونه أن يخرج أتباعه من

الظلام إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشقاء إلى السعادة، فأحبوه وفَدَوْهُ بأنفسهم وأهليهم وأموالهم، واقتدوا به في كل صغيرة وكبيرة، وجعلوه نبراساً لهم يستضيئون بالنور الذي أنزله الله إليه ويهتدون بهديه، فأصبحوا أئمة الهدى وقادة البشرية إلى سبيل الرشاد.

واختار غيرهم البقاء على غيّهم وضلالهم، فعصوه وحاربوه، ونبذوا ما أرسله به ربه، فباءوا بغضب من الله وذلّة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وما أصيب المسلمون إلا بترك الإقتداء به، ونبذ هديه، ومخالفة سنته، والابتداع في شرعه. قال الله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾.

لقد اكتفى بعض المسلمين من سيرته ﷺ بقراءتها في المنتديات والاحتفالات، لا يتجاوزون ذلك الى جعلها قدوة الاهتداء والعمل.

وبعضهم يقرؤها تبركاً، أو للتسلّي بمعرفة أحداثها ووقائعها، أو حفظ تواريخ غزواته وأيامه وبعوثه وسراياه ﷺ ، ولم يتعبدنا الله بشيء من ذلك،

بل مردّه الجهل بواجب الاهتداء والاتباع والاقتداء، وعدم إدراك أن الحرص على اتباعه من لوازم محبته ﷺ، وإما لعدم إدراك مواضع الإقتداء من سيرته ﷺ، نظراً لضعف المَلَكَةِ في الاستنباط، أو لقلة العلم والكسل عن طلبه.

إن سيرته ﷺ رسمت المنهج الصحيح الآمن في عبادة الله، وهداية البشر، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة. وما فشلت كثير من مناهج الدعوة المتأخرة في إصلاح البشر إلا بسبب الإخلال بهديه والتقصير في معرفة سنته والكسل عن دراسة منهجه ﷺ في عبادة ربه وفي هداية البشر وإصلاحهم، وباتباع مناهج غيره من البشر.

لذا رأيت كتابة هذه النبذه من سيرته ﷺ عسى أن تكون مثلاً صالحاً لكتابة السيرة النبوية؛ ولبنة في بناء منهج للدعوة إلى الله قائم على هدي النبي ﷺ، سائلاً الله تعالى أن ينفع بها كاتبها وقارئها وناشرها، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

وآمل من كل من له اقتراح أو ملاحظة أو تنبيه أن يكتب لي على العنوان

التالي: المدينة النبوية ص.ب/ ١٠٢٢٧، أو عبر البريد الإلكتروني:

yahya@aldar.org أو yy@ayna.com

راجياً من الله لي وللجميع التوفيق والتسديد.

بيت الله الحرام - مهد البعثة

بناء الكعبة:

حري بك يا أخي المسلم وأنت تتجه كل يوم في صلاتك إلى هذا البيت المحرم أن تزيد معرفتك به، ولا أظنك إلا من الحريصين على ذلك؛ فهو خير مكان على الأرض جعله الله مثابة للناس وأمنا، وطهّره للطائفين والعاكفين، منه شع نور الإسلام، وبُعث فيه خير الأنام سيّدنا وقائدنا ونبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام.

إن في قصة بناء الكعبة لذكرى لأولي الألباب، تتّضح فيها نعمة الله على عبادة المؤمنين، فقد أمر نبيّه وخليله إبراهيم أن يضع زوجته وابنه هناك حيث لا أنيس ولا جليس، ليرفع معه قواعد هذا البيت.

قال البخاري في صحيحه: قال ابن عباس: جاء إبراهيم بهاجر وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحةٍ فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء،

فوضعهما هنالك ووضع عندهما جُراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء.

ثم قفّى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: أ الله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيّعنا، ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنيّة حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿ ربّنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ حتى بلغ: ﴿يشكرون﴾.

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط-، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من

الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فذلك سعي الناس بينهما.

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت: صه تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم، أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً.

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فان هاهنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله.

وكـــان البيت مرتَفَعاً من الأرض كالـــــرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله.

فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا فـــي أسفل مكة فرأوا طائراً فقالوا: إن هذا الطـــائر ليـــدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه مـــاء فأرســـلوا جريّاً أو جريَّين فإذا هم بالمـــاء فرجعـــوا فـــأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء فقـــالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حَـــقّ لكم في الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فألفى ذلـــك أم إسماعيل وهي تحب الأنس، فـــنزلوا وأرســـلوا إلـــى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منـــهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفســـهم وأعجبـــهم حين شبّ، فلما أدرك زوّجوه امرأة منهم.

وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تـــزوج إسماعيل يطالع تَركَتَه فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأتـــه عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عـــن عيشـــهم

وهيئتهم فقالت، نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقْرَئي عليه السلام وقولي له، يُغيِّر عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غيِّر عتبة بابك، قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، إلحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ : ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه، قال: فهما لا يخلوا عليهما أحد

بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبّت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ فقالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته فسألني: كيف عيشنا فأخبرته أنّا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبّت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال :يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فان الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾، قال:

فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقـــولان: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾.

العبرة من قصة بناء الكعبة:

١- التسليم المطلق لله تعالى؛ فإبراهيم يـــدع امرأتـــه وطفلها في أرض موحشة غريبة قفراء لا ماء فيها ولا شجر استجابة وطاعة لله تعالى، مع ما عُرف عن الأب من الشفقة والرحمة، ولكن التسليم لأمـــر الله تعـــالى فوق كل شيء.

٢- إمتحان الصّالحين (الأنبياء ثـــم الأمثـــل فـــالأمثل) بأحب ما يملكون من الولد والنفس والمال.

٣- إن المصائب والمحن التي تنزل بالمسلم قد لا تعني بالضرورة أن الله تعالى غضب عليه، بل إنه أرحم بـــه من نفسه، ولكن النفس تصهرها الشدائد فينفي الله بها عنه الخبث، وتُصلح من نفس المبتلى وقلبه، وتُظـــهر شكره لربه وطاعته له، على الشح بـــالنفس والولـــد والمال، ولهذا قال رسول الله ﷺ: " أشد النـــاس بـــلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل"، رواه أحـــــمد والـــترمذي

وابـن ماجـه. فهذا خليل اللـه إبراهيـم عليـه الصـلاة والسلام تتوالى عليه المحـن والفتـن فيخـرج منهـا نقيّـاً تقيّاً، صابراً محتسباً، مسلماً أمره لله جل وعلا، حتـى جعله الله أمّة بنفسه: ﴿إن إبراهيم كـان أُمّـةً قانتـاً للـه حنيفاً ولم يك من المشركين* شاكرا لأنعمه﴾.

٤- تربية إبراهيم أسرته على الطاعة والتسـليم الكـامل لأمر الله عزّ وجلّ.

٥- قوة إيمان هاجر وعِظَم ثقتهـا باللـه وتوكّلهـا عليـه وحده عز وجل.

٦- التوجه إلى الله وحده بالدعـاء والتضرع فـي كـل حال، فـإبراهيم عليـه السـلام لمّـا نفّذ أمـر ربـه بوضـع زوجته وابنه في ذلـك المكـان المقفر، توجّـه إلـى اللـه بالدعاء لهم بالإنس والرزق والبركة، ومن توكّـل علـى الله وحده كفاه، ومن ركن إليه وحده آواه، ومن سـأله وتضرّع إليه وحده أعطاه، قال الله تعالى:

﴿ ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن اللـه بـالغ

أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾، سورة الطلاق، آية:٢-٣.

٧- إن الله سبحانه وتعالى لا يضيع من توكل عليه وحده وسلّم الأمر إليه وحده، مهما ادلهمت الخطوب واشتدت الكروب، فإنه لا يأس من روح الله ورحمته؛ فهذه أم إسماعيل لما انتهى طعامها وماؤها توجهت إلى الله وحده، وأرسل الله إليها غوثاً من عنده، وأجرى لها الماء بأمره جل وعلا.

٨- من أقبل على الله تعالى والتزم أمره وتوجه إليه بالعبادة دون سواه؛ رفع الله ذكره في العالمين؛ أُنظر رحمك الله كيف بقيت ذكرى أم إسماعيل في السعي بين الصفا والمروة إلى يومنا هذا.

٩- من لم يشكر الله ولم يرض بقسمته فليس أهلا لرفقة عباد الله الصالحين أهل العبادة والطاعة والعمل والشكر، ولهذا أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام ابنه إسماعيل أن يطلِّق تلك المرأة التي شكت إليه شدة العيش، فكفرت بأنعم الله التي لا تعدّ ولا تحصى.

سبب بناء البيت:

أنت تدرك معي أخي الكريم الغاية التي من أجلها بني هذا البيت، إنه من أجل توحيد الله بعبادته وحده ونبذ الشرك به، كما قال الله تعالى: ﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهّر بيتي للطائفين والقائمين والرّكع السجود * وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾، سورة الحج، آية: ٢٦-٢٧.

قال ابن كثير في تفسيره:

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به في عبادته من قريش، في البقعة التي أسّست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر الله تعالى أنه بوّأ لإبراهيم مكان البيت، أي أرشده وهداه إليه، وسلّمه له وأذن له في بنائه، ﴿أن لا تشرك بي شيئا﴾ أي: ابنِهِ على اسمي وحدي ﴿وطهر بيتي﴾ قال قتادة ومجاهد: من الشرك. ﴿للطائفين والقائمين والرُّكَّع السُّجود﴾ أي اجعله خالصاً لهؤلاء

الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطواف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فانه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿والقائمين﴾ أي في الصلاة، ولهذا قال ﴿والرُّكَّع السُّجود﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطّواف عنده والصّلاة إليه. أ. هـ.

وقال القرطبي في تفسيره: ﴿أن لا تشرك﴾ هي مخاطبة لإبراهيم عليه السلام في قول الجمهور. وقرأ عكرمة ﴿أن لا يشرك﴾ بالياء، بمعنى لئلا يشرك.

وفي الآية طعن على من أشرك من قطّان البيت، أي: هذا كان الشرط على أبيكم فمَن بعده وأنتم، فلم تَفُوا بل أشركتم.

وأمر بتطهير البيت والأذان بالحج. والجمهور على أن ذلك لإبراهيم وهو الأصح، وتطهير البيت عامٌّ في الكفر والبدع وجميع الأنجاس والدماء.

وقيل: المعنى نزِّه بيتي عن أن يُعبَد فيه صنم، وهذا أمر بإظهار التوحيد فيه. والقائمون هم المصلون. وذكر تعالى من أركان الصلاة أعظمها، وهو القيام

والركوع والسجود . أ.هـ . تفسير القرطبي (٣٧/١٢).

فللتوحيد بُني هذا البيت ومن أجل التوحيد عُمِر، ولأهل التوحيد وحدهم شُيِّد، ومن أجلهم طُهِّر البيت من الشرك والبدع والخرافات، وهؤلاء المفردون لربهم بالعبادة هم الذين من أجلهم أقيم هذا البيت لا لأولئك الذين يشركون بالله تعالى، ويتوجهون بالعبادة إلى سواه، تقرباً إليه بأوليائه وطلباً لشفاعتهم اليه في علاه قال الله تعالى: ﴿ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ماهم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾، سورة الزمر، آية ٣ .

وقال تعالى : ﴿ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾، سورة يونس، آية:١٨.

ولكنّ أكثر الناس يجهلون أن " الدعاء هو العبادة " كما ثبت عن النبي ﷺ فيما رواه أحمد وأبو

داود والترمذي وابن ماجه.

فينبغي على المسلم أن لا يتّكل على عمله مهما كان صحيحا صوابا، فإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يأمرهما الله جل وعلا ببناء بيته المحرّم من أجل إفراده بالعبادة، ومنها الدعاء والاستعانة والاستغاثة في الرخاء والشده، فيقومان بذلك خير قيام، ومع ذلك لم يتكلا على عملهما بل سألا الله تعالى قبول العمل :﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾، فليس مجرد العمل كاف في القبول، بل لا بد أن يتحقق فيه:

١- الإخلاص لله تعالى الخالص من شوائب الشرك وحظوظ النفس.

٢- وأن يكون على ما شرع اللّه بالوحي على رسوله لا على الابتداع والاستحسان من البشر.

وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو الموحّد أبو الموحّدين يخشى من الشرك على نفسه وذريته ويعوذ بالله من ذلك فيقول: ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾ ، سورة إبراهيم، آية ٣٥، فهل أحد بعد

إبراهيم عليه السلام لا يخاف على نفسه من الوقوع في الشرك؟ إذن يجب على كل مسلم أن يكون دائماً يقظاً منتبها لنفسه حتى لا يقع في هذا الذنب العظيم، فان الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ فيما رواه أحمد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وأخفاه وأشنعه وأكثره حدوثاً إشراك الأولياء مع الله تقرباً واستشفاعا إليه بهم.

ذرية إسماعيل:

وبارك الله في ذرية إسماعيل فتناموا وصاروا قبائل، وانتشروا في الجزيرة العربية، وصاروا يُسَمَّون: العرب المستعربة، وقد بقوا على دين أبيهم إبراهيم عليه السلام مدة من الزمن، ثم بدأ النقص فيهم، ودخلت عليهم البدع من المجاورين لهم شيئاً فشيئاً، حتى دخلت عليهم عبادة الأوثان والأصنام.

وكان أول من أدخل الشرك إلى بلاد العرب عمرو بن لُحي الخزاعي؛ قال أبو هريرة ﷺ قال

فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾.

العبرة من قصة بناء الكعبة:

١- التسليم المطلق لله تعالى؛ فإبراهيم يدع امرأته وطفلها في أرض موحشة غريبة قفراء لا ماء فيها ولا شجر استجابة وطاعة لله تعالى، مع ما عُرف عن الأب من الشفقة والرحمة، ولكن التسليم لأمر الله تعالى فوق كل شيء.

٢- إمتحان الصّالحين (الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) بأحب ما يملكون من الولد والنفس والمال.

٣- إن المصائب والمحن التي تنزل بالمسلم قد لا تعني بالضرورة أن الله تعالى غضب عليه، بل إنه أرحم به من نفسه، ولكن النفس تصهرها الشدائد فينفي الله بها عنه الخبث، وتُصلح من نفس المبتلى وقلبه، وتُظهر شكره لربه وطاعته له، على الشح بالنفس والولد والمال، ولهذا قال رسول الله ﷺ: " أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل"، رواه أحمد والترمذي

النبيﷺ : " رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجرّ قصبه في النار، وكان أول من سيب السوائب" متفق عليه.

والسائبة هي الناقة التي كانوا يسيّبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء.

سبب البعثة الإشراك في عبادة اللّه

انحراف العرب عن الحنيفية:

ترك العرب دين أبيهم إسماعيل، وابتعدوا عن الحنيفية دين أبيهم إبراهيم، وانتشرت بينهم عبادة الأصنام والأوثان، وانحدروا بذلك إلى درك سحيق، حتى كان الواحد منهم في سفره يجمع أربعة أحجار، ثلاثة لقِدْرِه، وواحدا يعبده، وإن لم يجد حلب الشاة على كوم من تراب ثم عبده.

روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي يقول: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به، رواه البخاري.

وقد عبد قبائل من العرب الشمس والقمر والكواكب، والملائكة والجن، وأكثرهم عبد أضرحة ومقامات من ينسب إليهم النبوّة أو الولاية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله الله تعالى: ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى﴾ قال: كان رجلاً يلتّ السويق للحاجّ، رواه البخاري. وروى أيضاً عنه أنه قال في آلهة قوم نوح التي عبدها العرب بعد: أولئك أسماء رجال صالحين لما ماتوا أوحى الشيطان الى من بعدهم ان ابنوا في مجالسهم أنصاباً.

سبب عبادة الأوثان:

وكانت العرب تقصد بعبادة الأوثان عبادة الله والتقرب إليه بحبّ من نصبت له من الأولياء وتعظيمه. وهم في ذلك على طرق مختلفة؛ فبعضهم يقول: ليس لنا أهلية لعباده الله تعالى بلا واسطة لعظمته، فاتخذناها لتقربنا إلى الله، وفرقة قالت: إن للملائكة والأولياء عند الله جاهاً ومنزلة فاتخذنا أنصاباً لهم لتقربنا إلى الله، وبعضهم جعلوا الأوثان والانصاب قبلة

في عبادة الله كما أن الكعبة قبلة في عبادته، وفرقة أخرى اعتقدت أن على كل وثن أو نصب أو صنم مخلوقا موكّلا بأمر الله، فمن عبدها قضى الموكّل حاجته بأمر الله، ومنهم من يقصدون بذلك شفاعتهم عند الله، واتخاذهم زلفى إليه جل شأنه، قال الله تعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾، وقال تعالى عنهم: ﴿ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾.

ولم يعتقد المشركون الأوائل في أوليائهم النفع أو الضر من دون الله، بل كانوا في الشدائد يلجأون لله وحده، ويخلصون الدين له، قال الله تعالى: ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾.

العرب وشريعة إبراهيم:

بقيت في العرب بقية من شريعة إبراهيم وهديه في المناسك والطهارة، وهي الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كالاستنجاء

وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان، وكانوا يغتسلون للجنابة، ويغسلون موتاهم ويكفنونهم.

وكانوا يعمرون المسجد الحرام، ويسقون الحاج، ويطوفون بالبيت، ويسعون بين الصفا والمروة، ويستلمون الحجر الأسود، وكانوا يُلبون إلا انهم يشركون في تلبيتهم يقولون: (لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك) فيما رواه مسلم عن ابن عباس، ويقفون المواقف كلها، ويُعظّمون الأشهر الحرم.

وكانوا يحرّمون نكاح المحارم وعملوا بالقسامة، واجتنب بعضهم الخمر في الجاهلية. وهم معترفون بالله وبعظمته وبتدبيره للأمور، وأنه الرازق الخالق المحيي المميت، وأن جميع الخلق تحت قهره وتصرفه، إلا أنهم اتخذوا من دون الله وسائط يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى؛ قال الله تعالى : ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمَّنْ يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾، وقال

تعالى: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل أفلا تذكرون. قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم. سيقولون لله قل أفلا تتقون. قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾، سورة المؤمنون، أية :٨٤- ٨٩. وقال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾، سورة الزخرف، آية: ٩.

فهم بذلك يشهدون أن الله هو الخالق الرزاق وحده لا شريك له، لا يرزق إلا الله، ولا يحييّ إلا الله ، ولا يميت إلا الله، ولا يدبر الأمر إلا الله، وأن جميع السموات والأرض ومن فيها عبيده وتحت تصرفه وقهره، ومع ذلك يشركون به، ويدعون معه غيره ويستعينون ويستغيثون به وبغيره ويطلبون الشفاعة من غيره إليه، بل كانت الكعبة - وهي بيت الله المعظم عندهم- يحيط بها ثلاث مائة وستون صنماً، يتقربون بها إلى الله.

إنها الجاهلية التي ذكرها ﷺ في الحديث العظيم الذي رواه عنه عياض بن حمار المجاشعي، قال: إن رسول الله ﷺ ذكر ذات يوم في خطبته من الحديث القدسي قول الله تعالى: "وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمتْ عليهم ما أحْللتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب"، رواه مسلم.

فالحديث يبيّن انحراف أكثر الناس عن شريعة الله ونبذهم وحيه وراءهم ظهريا، واختراع شرع من عند أنفسهم، يحرّمون ما أحل الله ويحلّون ما حرّم الله.

كما يبيّن ضلال أكثر الناس عن التوحيد وردتهم عن الدين، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً؛ ذلك بأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وأمَرَتْهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً فخلطوا الشرك بالإيمان، قال الله تعالى:﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾.

كما يشير الحديث إلى الفساد العظيم الذي غطى وجه الأرض مما استحق به الناس مقت الله لهم جميعا إلا بقايا من أهل الكتاب.

وبهذا صارت البشرية في أشد الحاجة إلى منقذ لها من البدعة إلى السنة، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمة الشرك إلى نور التوحيد والإيمان، ومن الشقاء إلى السعادة في الدنيا والآخرة؛ يبعثه الله على فترة من الرسل، يُكمل به الدين ويصطفيه من ولد آدم لهذا الأمر العظيم ويختم به رسالاته إلى الثقلين الجن والإنس بشيراً ونذيراً.

محمد ﷺ قبل البعثة

الاصطفاء:

عند هذا الحدّ من الطغيان والانحراف، اصطفى الله عبده ورسوله محمد بن عبدالله خاتماً للنبيين والمرسلين.

وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الاسقع أن رسول الله ﷺ قال: " إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم".

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت فيه ".

وروي أحمد عن عبدالله بن مسعود قال: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على

دينه، فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئا فهو عند الله سيء. أي: ما رآه أهل الفقه في دينه والجهاد في سبيله من صحابته وتابعيه رضي الله عنهم، فهو الدين، لأنهم العالمون العاملون، المؤهلون لفهمه المؤتمنون على تبليغه.

نسبه ﷺ:

هو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان، وعدنان من نسل إسماعيل عليه السلام.

ولادته ونشأته ﷺ:

ولد يوم الاثنين كما ورد ذلك في صحيح مسلم لمّا سئل ﷺ عن صيام يوم الاثنين قال: " ذلك يوم ولدت فيه "، واختلف في تعيين اليوم والشهر الذي ولد فيه. وعام ولادته عام الفيل، على أرجح الأقوال.

وتتفق رواية مسلم مع ما ذكره ابن اسحق من

أن والده عبدالله مات والنبي ﷺ حمل في بطن أمه.

وصحّ أن ثويبة مولاة أبي لهب أرضعته ﷺ.

وقد ورد استرضاعه في ديار بني سعد فيما رواه أحمد والحاكم بسند جيّد.

وحضنته مولاته أم ايمن؛ وقد اعتقها عليه الصلاة والسلام بعد ما كبر، كما ثبت في صحيح مسلم.

تهيئتة لحمل الرسالة:

ثم كانت تلك الحادثة العظيمة في بني سعد من شق صدره ﷺ ونزع حظ الشيطان منه تهيئة له لتحمل الرسالة:

روى مسلم عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب واستخرج منه علَقة سوداء، فقال: هذا حظ الشيطان، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا : إن محمداً قد قتل. فاستقبلوه وهو

منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.

كفالته بعد وفاة والدته:

وقد ماتت أمه وعمره ست سنوات، فكفله جده عبد المطلب، ثم مات بعد سنتين فأوصى به إلى عمه أبي طالب، فكفله عمه وحن عليه ورعاه.

وقد شب في كفالة عمه أبي طالب تحت رعاية الله وحفظه له من أمور الجاهلية وعاداتها السيئة.

فكان أفضل قومه مروءةً، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً وأمانةً، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم من الفحش والأذى، ما رؤي مُلاحِياً ولا مُمَارِياً أحداً، حتى سماه قومه الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة. (سيرة ابن كثير).

إرهاصات نبوته:

وقعت عدة أحداث كانت بمثابة إرهاصات لنبوّته ﷺ ، ومنها:

١- تسليم الحجر عليه.

فعن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ : " إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن "، رواه مسلم.

٢- الرؤيا الصادقة.

روت عائشة رضي الله عنها أن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، متفق عليه.

٣- العزلة والتحنث.

لقد حُبِّب إلى النبي ﷺ قبيل بعثته الخلوة، فكان يخرج إلى غار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، كما في الصحيحين.

وفي التعبد تربية للمسلم، الداعي إلى الله بخاصة، ليستعين بعبادة الله تعالى على مقاومة نزعات النفس وشهواتها، ومغريات الحياة وأعراضها، والصبر على تحمل مشاق الدعوة وشدائدها، والمثابرة على تربية الناس وتوجيههم، ومقابلة صدّهم وإعراضهم

بالحلم والعفو، قال الله تعالى: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة﴾

بعثة محمد ﷺ

الوحي:

ما كان النبي ﷺ في تعبده وتحنثه ينتظر النبوة أو يترقبها، بل لم تكن تخطر له على بال، كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين ﴾.

وبُعث النبي ﷺ وعمره أربعون سنة، كما ثبت عن ابن عباس أنه قال: "أُنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة، ثم أُمِرَ بالهجرة فهاجر إلى المدينة، فمكث بها عشر سنين، ثم توفي ﷺ "، رواه البخاري.

وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة في ذكر بدء الوحي قالت: " أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النّوم - وفي رواية أخرى: الصادقة - فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه - وهو التّعبّد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء.

فجاءه المَلَك فقال: اقرأ، فقال: " ما أنا بقارئ". قال: " فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق* خلق الإنسان من علق* اقرأ وربك الأكرم﴾.

فرجع بها رسول ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زمّلوني

– وأخبرها الخبر – :" لقد خشيت على نفسي".

فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضعيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة. وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيراً قد عمي.

فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا النّاموس الذي أنزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ "أو مخرجي هم"؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي".

وقِف أخي مع كلمة : "فجاءه الملك" لتعلم كيف تحمّل الرسول ﷺ وهو في حال عزلته وتحنثه وخلوته، فيدخل عليه مَلَك عظيم الخلقة لم ير مثله قط، ثم يضمه اليه ويقول: اقرأ. لا شك أنه ﷺ خاف أول الأمر ثم ثبت وتحمل وصبر ﷺ.

وهكذا من حمل أمانة الدعوة إلى هذا الدين ينبغي له أن يعلم أن الدين لم يصل إليه إلا بعد أن قاسى فيه رسول الله ﷺ أصنافاً من المشقة والعناء؛ فليصبر وليحتسب أجره على الله ﴿ إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾.

وكان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان يأتيه في اليوم الشاتي فيتفصّد جبينه عرقاً، وقد كادت رجل زيد بن ثابت ان تُرَضّ لمّا نزل الوحي ورأس النبي ﷺ على رجله.

وفي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ " كان إذا أُنْزِل عليه الوحي كُرِب لذلك وتربد وجهه" .

تبليغ الرسالة:

وقد أمر الله نبيه ﷺ بالدعوة إلى الاسلام وتبليغ ما أنزل إليه، فبدأ ﷺ بدعوة من يثق به من قومه، ومكث على هذا ثلاث سنين، لم يأمره الله تعالى بالجهر بالدعوة، فلما أنزل الله عليه: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ لبّى أمر ربه وجهر بالدعوة إلى الإسلام.

وكان المسلمون جميعاً يكتمون إسلامهم ويخفونه عن أقوامهم وأهليهم؛ روى البخاري عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ للمقداد: " إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته، فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل".

فلما أنزل الله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾، لم يكن للرسول ﷺ والمسلمين ان يختاروا غير ذلك.

الدروس والعبر:

١- التخفيف على الرسول ﷺ ومن آمن به حتى لا يواجه الداعي إلى الله العدو وحده من أول يوم مع فقدان الناصر.

٢- استطاع الرسول ﷺ في هذه الفترة بفضل الله أن يكتسب أتباعاً وأنصاراً للدعوة عمل على تربيتهم وإعدادهم ؛ فكانوا خير عون له بعد الجهر بالدعوة، وهم الذين انتشرت بهم الدعوة إلى الإسلام، فكانوا هم الأساس والقاعدة التي قامت عليها الدعوة إلى دين الله عز وجل فيما بعد.

٣- إن الإسرار بالدعوة أمر مرحلي واستثنائي لأحوال خاصة في مثل حال بداية الدعوة وحال تكالب أعدائها عليها.

وعلى هذا فإن الإسرار بالدعوة بعد ذلك مخالف للأصل الثابت المستقر، فلا يجوز اللجوء إليه إلا عند الضرورة، بما لا يترتب عليه كتمان للدين، ولا سكوت عن الحق مطلقاً.

السابقون إلى الإسلام

أول من تابع رسول الله ﷺ وآمن به خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وعلي بن أبي طالب، وكان صغيراً لا يتجاوز العاشرة من عمره، وأبو بكر صديق النبي ﷺ وجليسه وكان رأساً مقدماً في قريش، وكان تاجراً محببا مألوفاً. (ابن اسحق).

وقد استفاد أبو بكر من ثقة الناس به ومجالستهم له، بدعوة من يثق به منهم إلى الإسلام، فأسلم على يديه في الأيام الأولى عدد من كبار الصحابة، ذُكر منهم: الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعد ابن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف. وهؤلاء من العشرة المبشرين بالجنة على لسان الرسول ﷺ، رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم.

وذُكر ممن أسلم على يد أبي بكر: مصعب بن عمير، وعياش بن أبي ربيعة، والأرقم بن أبي الأرقم ابن عبد مناف بن أسد، وعثمان بن مظعون الجمحي.

الدروس والعبر:

١- بيان أثر مجالسة الأخيار وصحبتهم على من جالسهم فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه اكتسب هذه المكانة من إيواء الرسول ﷺ له دون سائر إخوانه، وأبو بكر من صداقته لرسول الله ﷺ فالجليس الصالح كما وصفه النبي ﷺ " إما أن يُحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه رائحة طيبة " متفق عليه.

٢- أثر الأخلاق الحسنة في تأليف قلوب الناس، وخير الناس من يألف ويؤلف، أما الفظاظة والغلظة فعقبة في طريق الدعوة، قال الله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لا نفضّوا من حولك﴾.

٣- قيام أبي بكر ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى، مَثَلٌ صالح للمؤمن الصادق الذي لا يقر له قرار بعد أن هداه الله إلى الإسلام، حتى يبذل وقته وجهده وماله في سبيل الله خدمة لدينه ودفاعاً عنه ونشراً له.

٤- المسلمون الأوائل كانوا من عشائر مختلفة؛ فلا مكان في الإسلام للقبيلة التي كانت إذ ذاك محور

الحياة عند العرب.

٥- سموّ الإسلام على القبيلة وحمّية الجاهلية أعان على انتشاره في جميع العشائر والقبائل دون تحجيره أو احتكاره لقبيلة أو مكان أو زمان دون غيره.

٦- الذين سبقوا إلى الإسلام ظلوا دائماً في الطليعة، في الحرب والسلم، وفي السياسة والحكم، وفي العلم والفقه.

فلم يكن إيمانهم بالله واستسلامهم لشرعه، فورة حماس عاطفي لا تلبث أن تفتر وتخبو وتزول، وإنما هو إيمان عميق يحرّك القلوب والنفوس والأبدان للعمل لهذا الدين. فلم تعرف تلك الطليعة من خيار الأمة راحةً ولا ترفاً ولا كسلاً عن الدعوة إلى الله والقتال في سبيله لتكون كلمته هي العليا منذ أسلمت حتى لقيت الله تعالى، رضي الله عنهم أجمعين.

٧- لقد كانت هذه الطليعة غريبة في ذلك الجمع الجاهلي الذي يعج بالفوضى والفساد والانحلال، ولكن غربتهم ليست غربة الضعف والذل والانكسار والرضى بالهوان، لقد جعلهم الله بالإسلام ﴿ أذلة على المؤمنين

أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾، فهم واثقون بنصر الله وتمكينه، يتسابقون للمشاركة في رفع راية الإسلام، يسعى كل واحد منهم إلى أن يكتب الله على يديه النصر لهذا الدين.

قال الله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ولييدّلنّهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾.

الجهر بالدعوة

إن الدعوة لم تكن لتظلّ سرية يخاطَب بها الفرد بعد الآخر، وإنما جاءت لتنذر العالمين، وتبشر المؤمنين من الجن والإنس أجمعين؛ لإخراج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

لقد أُنزل على رسول الله ﷺ وهو بَعدُ محصور في مكة وقريش تكيد له وتعاديه، أُنزل عليه

قول الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافّة للناس بشيراً ونذيراً﴾، ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾، ﴿ إن هو إلاّ ذكرى للعالمين﴾، ﴿ إن هوإلاّ ذكر للعالمين ﴾، وإذا كان الامر كذلك فإن الدعوة إلى الله ليست خاصة بقريش ولا بالعرب وإنما هي رحمة من الله عامّة، فلابدّ من الجهر والأذان بها وإعلانها للناس، والسعي لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة.

وهذا يبين للمسلم أن من أبرز خصائص هذا الدين الحنيف: البلاغ، والنذارة، والبشارة، ويتحمل أتباعه ما يقابلون به من الإيذاء والقتل وغيره، فليس عليهم ولالهم إلا الدعوة، أما الهداية فبيد الله وحده: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

لقد مكث رسول الله ﷺ ثلاث سنوات يدعو إلى الله تعالى سرّاً، ثم أمره الله تعالى أن ينذر عشيرته الأقربين فأنذرهم، ثم أمره بالصدع بالدعوة فصدع بها.

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: لما

نزلت : ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف : "ياصباحاه"، فقالوا: من هذا: فاجتمعوا إليه، فقال: "أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مُصَدّقِيّ"؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم". قال أبو لهب: تبّاً لك ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تبّت يدا أبي لهب وتب﴾.

وفي تفسير سورة الشعراء عند البخاري: قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقاً.

وعن أبي هريرة قال: فقام رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، قال: "يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - إشتروا أنفسكم، لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف، لا أُغنى عنكم من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ، لا أُغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ، سليني ما شئت من مالي، لا أُغني عنك من الله شيئاً "، متفق عليه.

الدروس والعبر:

١- البدء بدعوة الأقربين حتى لا يكونوا حجة لغيرهم، والحجة إذا قامت عليهم تعدّت إلى غيرهم، وهم أولى بالبر والخير من غيرهم لما في ذلك من صلة الرحم.

٢- في دعوة النبي ﷺ قرابته بيان صدق ما جاء به، حيث خاطب بما جاء به أقاربه وأهل بيته قبل غيرهم من الناس.

٣- أعلن الرسول ﷺ للناس منهاج الشريعة، وبيّن أن جزاءهم عند الله ونصيبهم في الإسلام يكون بقدر طاعتهم، فالأنساب والبقاع لا تزكي أحداً، فأبو لهب عم النبي ﷺ أفرده الله من بين قومه بسورة في كتابه تُبيّن مقت الله له وغضبه عليه وتَعِدُه مع امرأته بنار جهنم، وكان هاشمياً قرشيّاً، وكان له المال والجمال، وكان له الشرف والجاه، مع ما كان له من قرابة رسول الله ﷺ فلم يغن عنه ذلك من الله شيئاً .

٤- إذا كان سيد ولد آدم رسول الله ﷺ لا يملك لسيدة نساء أهل الجنة فاطمة رضي الله عنها شيئاً فكيف بغيرها، وكيف بغيره من البشر، بل قال الله تعالى:

﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولاضراً إلا ما شاء الله﴾.

٥- النتيجة القريبة للجهر بالدعوة الى الله: الصّدّ والتّكذيب والإيذاء والسخرية. ولكن مهمة الداعي إلى الله طاعة ربه وخدمة دينه، مهما كانت النتيجة؛ فهي من أمر الله وحده، ولا شأن للداعي إلى الله بها.

مقاومة الدعوة

الأذى في سبيل الله:

الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة ونبذ الأولياء والأنداد أزعج قريشا، لمخالفة ذلك معتقدات ورثوها من الآباء والأجداد، وهدد مصالحهم التي بنيت على تلك المعتقدات الباطلة واستفادوا منها مركزا بين القبائل العربية؛ فانتصب المشركون لعداوة الرسول ﷺ ومقاومة دعوته وإلحاق الأذى به وبأصحابه.

وكان أصحابه وهم في الجاهلية يأنفون الذل ويأبون الضّيم، ويتفاخرون بالأخذ بالثأر، ولما جاء الإسلام رفع مكانتهم وزاد عزتهم، ولكن جاءهم ما لم يكونوا يعرفونه أو يألفونه من الأذى والظلم والإذلال،

فرأوا بلالاً من إخوانهم يُجر في الطرقات، وياسراً وسمية يقتلان صبراً، وأفضل ولد آدم رسول الله ﷺ يلحق به أشد أنواع الأذى، يُستهزأ به، ويوصف بالجنون والسحر والكذب؛ فأراد الصحابة الانتقام والأخذ بالثأر، ولكن النبي ﷺ أمرهم - رغم ما يواجهونه من الأذى والظلم - بالتحلي بالصبر، وألا يقابلوا العدوان بالعدوان فأمْر الله أولى بالطاعة من أمر أنفسهم.

روى ابن عباس رضي الله عنهما أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا رسول الله: إنا كنا في عزٍّ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، فقال: "إني أُمِرت بالعفو فلا تقاتلوا" فلما حوَّلنا الله إلى المدينة أُمرنا بالقتال، فَكفُّوا، فأنزل الله عز وجل ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كُفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة﴾ رواه النسائي والحاكم.

وكان أول الأمر بالقتال الإذن به، وفي هذا دلالة على سابق طلبه ومنعهم منه، قال الله تعالى: ﴿أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم

لقدير﴾.

وفيه دلالة على أن الصبر على الأذى في سبيل الدعوة أشد من القتال والجهاد، فجاء القتال فَرَجاً مما يعانونه من الصّبر على أذى أعدائهم.

وهذا خبّاب يطلب من رسول الله ﷺ الدعاء لهم ورسول اله ﷺ يأمره بالصبر مع أن خبّاباً قد عذّب وأوذي أشد الأذى حتى كان يطرح على الجمر فما يطفئه إلا شحم ظهره ﷺ.

فقد روى البخاري عن خباب بن الارت ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو مُحْمَرٌّ وجهه فقال: " لقد كان مَنْ قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، مادون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ولَيُتِمَّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله".

زاد بيان وهو أحد رواة الحديث: " والذئب

على غنمه ".

وكانوا يؤمرون بالاستعانة على تحمل الأذى بالصبر والصلاة، قال الله تعالى: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها المزمل* قم الليل إلا قليلا* نصفه أو انقص منه قليلا* أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلا* إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا* إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا﴾ فقام الرسول ﷺ وأصحابه قريبا من سنة، ثم نزل التخفيف. رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

الهجرة الى الحبشة:

صار أهل مكة كل يوم يشتدون في أذى المسلمين فأمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة ليسلموا من أذى قريش، وقال لهم: " إن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد "، رواه ابن اسحق وابن هشام بإسناد حسن، كما في السنة الصحيحة (١/١٧٠).

الحصار:

وبلغ أذى قريش للنبي ﷺ وأصحابه، أن حصروهم في شعب من شعاب مكة ثلاث سنوات لا يبيعونهم ولا يشترون منهم، حتى أكلوا ورق الشجر من شدة الحاجة، وكان أبو طالب محصوراً معهم.

عام الحزن:

وبعد فكّ الحصار تُوفيّ أبو طالب الذي كان يذب عن النبي ﷺ ويحوطه ويدافع عنه وهو على الشرك، ثم توفيت زوجته خديجة رضي الله عنها التي كانت تسرّي عنه وتهوّن عليه، فتمادت قريش وسفهاؤها في أذى النبي ﷺ بما كانت لا تصنعه في حياة زوجته وعمه.

الاسراء والمعراج:

روى الشيخان وغيرهما عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: " أُتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه " ، قال: " فركبته حتى أتيت بيت المقدس"، قال:

"فربطته بالحلقة التي يَربُط بها الأنبياء"، قال: " ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل صلى الله عليه وسلم: إخترت الفطرة، ثم عرج بنا الى السماء فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث اليه، فَفُتِح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير، [ثم عرج به إلى السموات فلقي فيها الأنبياء، ولقي موسى في السماء السادسة] قال:" ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه قال: نعم، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال"، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليّ ما أوحى؛ ففرض عليّ

خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنَزلْتُ إلى موسى ﷺ فقال: ما فرض ربك على أُمَّتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمَّتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفّف على أمّتي، فحطّ عنّي خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حطّ عنّي خمساً، قال: إن أمَّتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كُتِبَتْ له عشرا، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فان عملها كتبت سيئة واحدة ".

قال: " فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال رسول الله ﷺ: فقلت : قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه".

ومن هنا تعلم أهمية الصلاة؛ فقد فرضت

وحدها من بين أركان الاسلام في السماء السابعة فهي أعظم أركان الاسلام بعد الشهادتين، وقد روى أحمد والنسائي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: " حُبّب إليّ من الدنيا: النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة".

فكان يصلي ويطيل القيام حتى انتفخت قدماه الشريفتان كما روى مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ صلّى حتى انتفخت قدماه فقيل له: أتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: "أفلا اكون عبداً شكوراً "، متفق عليه.

وكان يُسمَع لصدره وهو في الصلاة أزيز من البكاء، كما روى أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم عن ثابت عن مطرف عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء .

ولما حدّث رسول الله ﷺ قريشاً بالإسراء والمعراج كذبوه واستهزؤا به، وانطلقوا إلى أبي بكر الصديق ظانّين أنه سيشك في صدق رسول الله ﷺ.

فقالوا: إن صاحبك يخبر أنه أتى بيت المقدس وصعد إلى السماء في ليلة واحدة، فقال الصديق: لإنْ كان قاله فقد صدق، رواه البيهقي والحاكم وصححه.

دعوة القبائل

قال ابن كثير: والمقصود أن رسول الله ﷺ استمر يدعو إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، لا يصرفه عن ذلك صارف ولا يردّه عن ذلك رادٌّ ولا يصدّه عن ذلك صادّ، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج، يدعو من لقيه من حرّ وعبد، وضعيف وقوي، وغني وفقير، جميع الخلق عنده في ذلك سواء، أ. هـ. (البداية)

وكان أتباع رسول الله نزاعا من القبائل وكانوا غرباء، لا قبيلة تحميهم، وكان رسول الله ﷺ يرتاد للدعوة موطناً تحتمي به، وكان يأمر من اتّبعه من القبائل خارج مكة أن يبقوا في قبائلهم ويستَخْفُوا حتى يُظْهره الله على أعداء دينه.

عن سالم بن أبي الجعد عن جابر قال: كان

رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموقف، فقال: "ألا رجل يحملني إلى قومه؟ فإنّ قريشا قد منعوني أن أُبلِّغ كلام ربي"، رواه أحمد وأهل السّنن وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى عبدالله بن ذكوان عن ربيعة بن عباد الديلي قال: رأيت رسول الله ﷺ بَصُرَ عيني بسوق ذي المجاز يقول: "يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا"، ويدخل في فجاجها، والناس متقصفون عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت يقول: " يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا"، إلا أن وراءه رجلاً أحول، وضيء الوجه، ذا غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب، فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد بن عبد الله، وهو يذكر النبوة، قلت: من هذا الذي يكذّبه؟ قالوا: عمه أبو لهب. قلت: إنك كنت يومئذ صغيراً، قال: لا والله، إني يومئذ لأعقل، رواه الامام أحمد وغيره.

وعن طارق بن شداد ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ مرتين، رأيته بسوق ذي المجاز وأنا في بياعة لي، فمرّ وعليه حلة حمراء، وهو ينادي بأعلى صوته:

"أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا" ، ورجل يتبعه بالحجارة، وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه، وهو يقول: يا أيها الناس، لا تطيعوا هذا، فإنه كذاب، فقلت: من هذا؟ فقيل: هذا غلام من بني عبد المطلب، فقلت: من هذا الذي يرميه بالحجارة، فقيل: عمّه عبد العزّى أبو لهب، رواه ابن أبي شيبة وابن خزيمة والحاكم وصححه.

الدروس والعبر:

١- هذه القصص تكشف عن مدى الصدّ والكيد الذي بذلته قريش في محاربة الدعوة وصاحبها.

٢- الدعوة إلى الله على بصيرة تعني أن المُصْلِح سينكر أشياء تعارف عليها الناس فعليه إعداد نفسه لتحمل المعارضة والمحاربة والإيذاء.

٣- الدعوة إلى الله وإن لم تلق الاستجابة، تدفع الناس إلى الشك في معتقداتهم وتثير في أنفسهم الرغبة في المقارنة بين القديم من معتقداتهم والجديد مما يسمعون، وتوجّه من كتب الله له الهداية إلى البحث عن الحق.

٤- لم يكن الرسول ﷺ يترك سانحة من السوانح ولا مكانا مناسبا لتبليغ دعوته إلا استفاد منه، كما تقدم من تبليغه الدين في المواسم والأسواق.

٥- كان رسول الله ﷺ يبحث عن مأوى للدعوة تحتمي به تحت مشيئة الله حتى تكون حرة من العقبات طليقة من قيود التّعصّب والظلم.

٦- استخدم الشيطان في الصدّ عن رسول الله ﷺ أكثر أهله مناوءة له آن ذاك وهو عمّه أبو لهب في زمن تدافع القبيلة عن أفرادها ومجموعها بالحق والباطل.

وما أشق ذلك على نفس الرسول ﷺ المكلّف بالتبليغ عن ربه، وهو يدعو الناس بالكلمة الطيبة وحيداً غريباً، فينبري بعض أقرب الناس إليه يطارده أمام أعين الناس، يرميه بالحجارة، ويحثو التّراب على رأسه ووجهه، ويكيل له التهم، وهو المعروف بينهم من قبل بالامانة والصدق والوفاء.

٧- ثقة الرسول ﷺ الكاملة بنصر الله له جعلته لا ييأس ولا يملّ، بل يدأب في عرض الدعوة على

الجماعات والافراد في كل مكان .

٨- أول ما عرض رسول الله ﷺ على النـــاس مـــن الدين بأمر ربه، كلمة التوحيد :(لا إله إلا الله) لأنـــها أساس الاسلام، ومعناها: إفراد الله وحـــده بالعبـــادة. وكان أول مانهاهم عنه إشراك أوليائهم مـــع الله فـــي العبادة، وهكذا فعل كلّ رسول قبله بأمر الله، قـــال الله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا نوحي إليه أنـــه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾، وقال الله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كلّ أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾.

بيعة العقبة

قال جابر بن عبـــدالله: مكـــث رســـول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة وفي المواسم بمنى، يقول:" من يؤويني؟ من ينصرنـــي حتى أُبلِّغ رسالة ربي وله الجنـــة"؟ حتـــى إن الرجـــل يخرج من اليمن أو من مُضَر - كذا قال - فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتِنْك، ويمشـــي بيـــن رحالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتـــى بَعَثَنـــا الله

إليه من يثرب فآويناه وصدّقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يُظْهرون الاسلام.

وبعثنا الله إليه فائتمرنا واجتمعنا وقلنا: حتى متى رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف؟ فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعَدْنَا بيعة العقبة. فقال له عمه العباس: يا ابن أخي لا أدري ما هؤلاء القوم الذين جاءوك، إني ذو معرفة بأهل يثرب.

فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين، فلما نظر العباس في وجوهنا قال: هؤلاء قوم لا نعرفهم، هؤلاء أحداث، فقلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟

قال: " تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة ".

فقمنا نبايعه، واخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو أصغر السبعين - إلا أنه قال: رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المَطِيّ الا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم وأن يعضّكم السيف. فإن أنتم قوم تصبرون عليها إذا مسّتكم، وعلى قتل خياركم، ومفارقة العرب كافة، فخذوه وأجركم على الله، وإن أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو عذر عند الله عز وجل.

فقالوا: يا سعد، أمط عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها، قال: فقمنا إليه رجلاً رجلاً، فأخذ علينا، ليعطينا بذلك الجنة، رواه أحمد وغيره.

الدروس والعبر:

١- تتبُّع الرسول ﷺ الناس في منازلهم وأسواقهم عشر سنين يكشف لنا مدى الجهد والتعب الذي بذله الرسول ﷺ في دعوته، ومدى صبره ومواصلته العمل وعدم اليأس من صلاح الناس وهدايتهم.

٢- اجتهاد قريش في الصدّ عن الرسول ﷺ بين قبائل

العرب ممّا جعل الناس يُحذّرون أفرادهم منه، لم يمنع من وهبه الله العقل وأراد له الهداية من اتباعه.

٣- لا يُستوحَش من الحق لقلة السالكين، وهذا الدين سيمكّن له في الأرض ولو بعد حين، فقد استمر إيذاء النبي ﷺ ومطاردته والتحذير منه في مكة سنين عديدة، وهو ماض في تبليغ رسالة ربه واثقاً من نصره، وجاء نصر الله مسوقاً إليه من المدينة، فالاضطهاد والابتلاء لا يثني الداعي عن دعوته، ولا يمنع الناس من الاستجابة له.

قال الله تعالى: ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾.

٤- خروج الصّالحين من بيئة الصدّ والاعراض والفساد إلى بيئة خير منها عمل صالح مشروع، يدل عليه هجرة النبي ﷺ ومن قبله من الانبياء عليهم الصلاة والسلام، وهجرة الصحابة رضي الله عنهم الى الحبشة، ثم إلى المدينة النبوية.

الهجرة إلى المدينة

بعد بيعة العقبة بدأ المهاجرون يتوجهون إلى المدينة.

فقد أخرج البخاري أن رسول الله ﷺ قال: "قد أُرِيْتُ دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين". وهما الحرتان، فهاجر من هاجر من مكة إلى المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر الى أرض الحبشة قبل ذلك.

وأخرج البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرآننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب رسول الله ﷺ.

وأخرج البخاري عن عائشة: وتجهز أبو بكر قِبَل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: "على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي" . فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: "نعم"، فحبس أبو بكر نفسه على رسول

الله ﷺ ليصحبه، وعلّف راحلتين كانتا عنده ورق السدر – وهو الخبط – أربعة أشهر.

وهنا ستعرف أخي الكريم: منزلة أبي بكر الصديق ﷺ من رسول الله ﷺ حيث اختاره رسول الله ﷺ رفيق هجرته من بين أهله و أصحابه.

وظل رسول الله ﷺ ينتظر أمر ربه بالهجرة إلى المدينة وقريش جاهدة في حربه والكيد له.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: لم أعقل أبويّ قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداءً له أبي وأُمّي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أَمْر، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: " أخرج من عندك" ، فقال أبوبكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: "

فإني قد أُذِن لي في الخروج"، فقال ابو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: "نعم" قال أبوبكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتَي هاتين، قال رسول الله ﷺ: "بالثمن"، قالت عائشة: فجهزناهما أحثّ الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاقين، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فكَمَنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبدالله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثَقِف لَقِن فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلايسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام.

ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رِسْل وهو لبنُ مِنْحَتِهما ورضيفهما حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس، فعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ

وأبو بكر رجلا من بني الديل وهو من بني عبد بن عدي هاديا خرّيتاً - والخِرّيت الماهر بالهداية - قد غمس حِلْفا في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمنَاه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جُعْشم أن أباه أخبره أنه سمع سُراقة بن جعشم يقول: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما مَنْ قَتَله أو أسَره، قال ابن شهاب: فأخبرني عروة ابن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام فكسا الزبيرُ رسولَ الله ﷺ وأبابكر ثياب بياض، وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يرّدهم حرّ الظهيرة.

فانقلبوا يوما بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أَطَم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب هذا جَدُّكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتا فطفق من جاء من الانصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيّي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلّل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسّس المسجد الذي أُسِّس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ ، ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بَرَكَتْ عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة،وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين،

وكان مِربَداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: "هذا إن شاء الله المنزل"، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: لا بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن:

"هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبرّ ربنا وأطهر"

" اللهم إن الأجر أجر الآخرة

فارحم الانصار والمهاجرة"

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يُسمَّ لي.

الدروس والعبر:

١- منزلة أبي بكر من النبي ﷺ وصلته الوثيقة به وقيامه بأمر الدعوة منذ بزوغ فجرها، فقد كان يزوره كلّ يوم مرتين.

٢- عزم أبي بكر على الخروج من مكة مهاجراً

بمفرده، يبيّن مالقيه المسلمون من الأذى والشدة، مع أن أبا بكر من الأشراف ومن الذين يجدون منعةً في قومهم فكيف بالضعفاء والعبيد!!

٣- أن الدين أهم ما في حياة المسلم فإن وجد عليه خطراً ضحّى ببلده وماله وأهله حماية لدينه، ولهذا هاجر المسلمون من أقدس بقاع الارض تاركين كل شيء خلف ظهورهم يطلبون الأمان لدين الله والدّعوة اليه.

٤- لقد أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة، ولم يختر صاحباً له في الهجرة غير أبي بكر؛ وفي هذا دلالة على علوّ منزلة أبي بكر عنده، وبعد موته اختاره الصحابة رضي الله عنهم لخلافته مستدلين بهذا على أنه أولى بالخلافة، إضافة إلى إنابة الرسول ﷺ أبا بكر في الصلاة بالمسلمين في مرض وفاته، (البخاري ومسلم).

٥- بادر أبو بكر بالاعداد لسفر الهجرة، وبذل ماله في خدمة الدعوة دون طلب من الرسول الله ﷺ ، وأجّل سفره في انتظار إذن الله لرسوله بالهجرة متحملا

المزيد من أذى قريش في سبيل الفوز بصحبة رسولﷺ في سفره، والفوز بثواب الله من الجنة.

٦- الإعداد للسفر، وإخفاء أمره، والاحتياط له، يبيّن أن الأخذ بالأسباب من سنة الرسول ﷺ ولا يتعارض مع التوكل على الله تعالى؛ لأن الاخذ بالاسباب طاعة لله تعالى وتوكل عليه، قال الله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم قوة﴾.

٧- من أعظم مظاهر التضحية في هذه الهجرة أنْ يغادر النبي ﷺ والمؤمنون هذا البلد المبارك الحبيب إلى قلوبهم، وهم أهله وأحقّ النّاس به، ولو انتهى بهم ذلك إلى أن لا يسكنوه بعدها، وهذا من أشق الأمور على النفوس، ولكن رجال العقيدة يرخصون في سبيلها كل غال؛عن عبدالله بن عدي بن حمراء الزهري قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً على الحزورة فقال: "والله والله إنكِ لخير أرض الله، وأحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت" رواه أحمد وغيره، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح.

٨- الرغبة في المساهمة في سبل الخير، فالرسول ﷺ أبى أن يركب راحلة ليست له فاشتراها من أبي بكر بالثمن، حتى تكون هجرته بماله ونفسه، رغبة في استكمال فضل الهجرة والجهاد على أتمّ أحوالهما.

٩- الاستفادة من خبرات المشركين إذا أُمن حالهم. وفرق بين المعاملة والولاء، فقد كان رسول الله ﷺ يتعامل مع الجميع ولا يوالي إلا المؤمنين، فكان يبيع ويشتري ويؤجر ويستعير ويهدي ويقبل الهدية ويزور الجميع، ولكنه لا يحبّ ولا يتولى إلا الله والمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾.

١٠- إن نصر الله فوق كل نصر وقدرة الله فوق كل قدرة، وأمر الله فوق كل أمر، فهذه قريش وفيها الزعامة وتحت يدها السلاح والرجال والأموال لم تستطع منع رسول الله ﷺ من الهجرة.

١١- لقد كان أبو بكر ﷺ خائفاً على حياة رسول الله ﷺ من أن يصيبها أذى، ولذلك كان يكثر الالتفات، أما رسول الله ﷺ فقد كان واثقاً من نصر ربه، مطمئنا

إليه، لم يعبأ بالخطر مع قربه منه.

جماعة المسلمين في المدينة

دعائم الحياة المدنية:

قامت حياة المسلمين في المدينة على دعائم، أهمها اثنتان:

أولاً: بناء المسجد.

فكان اول عمل قام به رسول الله ﷺ في المدينة بناء المسجد كما في صحيح البخاري.

وهذا يدل على أهمية المسجد في حياة الجماعة المسلمة؛ وفرض على المسلمين أن يتأسّوا برسول الله ﷺ في كل أمر من أمور الدين، وهذا من أعظمها.

وأهمّ غاية شرعها الله لوجود المسجد: ذِكْر الله، قال تعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾، وقال النبي : "إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن"، متفق عليه، واللفظ لمسلم.

وأهمّ انواع الذكر:

١- إقامة الصلاة، وكان الصحابة يحرصون أشد الحرص على الصلاة مع الجماعة، حتى إن الرجل منهم لا يستطيع المشي فيهادى بين رجلين حتى يأتيان به المسجد، وكان لا يتخلف عن الصلاة مع الجماعة في المسجد إلا منافق معلوم النفاق.

روى مسلم في صحيحه عن عبدالله بن مسعود قال: من سرّه أن يلقي الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن فان الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى ولو أنكم صلّيتم في بيوتكم كما يصلّي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيّكم، ولوتركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطّهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحط عنه بها سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف.

ولم يكن النبي ﷺ يعذر أحدا بالتخلف عن المسجد إذا سمع الاذان واستطاع الاجابة.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: أتى النبي ﷺ رجل أعمى فقال: يارسول الله إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخّص له فيصلي في بيته، فرخّص له، فلما ولّى دعاه فقال: "هل تسمع النداء بالصلاة؟" قال: نعم، قال: "فأجب".

فمع كونه ﷺ رحيماً بأمته، يشق عليه ما يشق عليهم، رؤوفاً بهم؛ لم يرخّص لهذا الاعمى في التخلف عن الصلاة في المسجد.

بل إن الرسول ﷺ همّ بتحريق أناس لا يشهدون الصلاة في المسجد، كما في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ "ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبْواً، ولقد هممت أن آمر المؤذن فيقيم ثم آمر رجلا يؤم الناس، ثم آخذ شعلاً من نار فأحرق على من لا يخرج إلى الصلاة بعد".

وقد بيّن رسول الله ﷺ ما للصلاة في المسجد من فضل كبير وأجر عظيم، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ:"وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة لا يريد إلا الصلاة، فلم يخط خطوة إلا رُفع له بها درجة وحُطّ عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه؛ والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه يقولون: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، اللهم تب عليه، مالم يؤذ فيه، ما لم يحدث فيه".

٢- تعليم الناس دينهم، فكان رسول الله ﷺ يعلّم الناس، وكانوا يجلسون إليه في المسجد ليتعلموا منه أحكام الشريعة، وكان الواحد منهم إذا شغله شاغل عن حضور المسجد ذلك اليوم أوصى غيره يأتيه بما يتعلّمه من رسول الله ﷺ. وخطبة الجمعة أعظم وسائل العلم.

ويرخّص في استعمال المسجد عند الحاجة لبعض الأغراض الأخرى:

١- إيواء الضعفاء والفقراء والمرضى وأبناء السبيل.

٢- إنشاد الشعر في نصر دين الله.

٣- سجن من استحق السجن من المسلمين وغيرهم.

٤- استقبال الرسل والسفراء.

٥- عقد ألوية الجهاد.

ولما اهتم المسلمون بشكل المساجد وزخرفتها قلّ استعمالها لغير الصلاة.

وهذا مصداق قوله ﷺ:"لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد"، رواه احمد وغيره.

وفي لفظ ابن حبّان: "نهى رسول الله ﷺ أن يتباهى الناس في المساجد".

وعن ابن عباس مرفوعا: "ما أُمرت بتشييد المساجد"، ثم قال ابن عباس: لتزخرفُنَّها كما زخرفت اليهود والنصارى، رواه أبو داود وابن حبان وصححه.

ثانياً: المؤاخاة.

لما هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة وقد تركوا ديارهم وأهلهم وأموالهم، وفرّوا إلى الله بأنفسهم؛ تنافس الأنصار- رضي الله عنهم - في

إيواء إخوانهم المهاجرين حتى اقترعوا على إيوائهم، فقد روى البخاري عن أم العلاء قالت: طار لنا عثمان بن مظعون في السكنى – حين اقترعَتِ الأنصار على سكنى المهاجرين – فاشتكى فمرّضناه حتى تُوفّي. بل طلبوا من الرسول ﷺ أن يقسم بينهم وبين إخوانهم من المهاجرين نخيلهم؛ فقد روى البخاري عن أبي هريرةﷺ قال: قالت الأنصار: اقْسم بيننا وبينهم النّخل، قال: "لا"، فقالوا: تكفونا المؤونة ونُشْرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا.

وآخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار؛ فكانت هذه الآصرة أقوى من آصرة القبيلة والنّسب حتى وصل بهم الحال إلى التوارث بينهم، كما روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى:﴿ولكلٍّ جعلنا موالي﴾، قال: ورثة، ﴿والذين عقدت ايمانكم﴾، قال: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحِمِه للأخوّة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ نُسِخَتْ، ثم قال: ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ من النصر

والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويُوصِي له.

وقد ضرب الأنصار خير المثل في إكرام إخوانهم المهاجرين بل في إيثارهم على أنفسهم، قال الله تعالى: ﴿والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾.

ولما فُتحت البحرين أراد رسول الله ﷺ أن يعوّض الأنصار بعض ما أنفقوه على اخوانهم المهاجرين، ففي البخاري عن أنس ﷺ : دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يُقْطِع لهم البحرين فقالوا: لا، إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: " إمّا لا، فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم بعدي أثره".

وروى البخاري أن عبد الرحمن بن عوف قال: لما قدمنا المدينة آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد ابن الربيع فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم لك نصف مالي، وانظر أيّ زوجتَيَّ هويتَ نزلت لك عنها فاذا حلّت تزوجتَها، قال: فقال له عبدالرحمن:

لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع، قال: فغدا إليه عبدالرحمن فأتى بأقطٍ وسمنٍ قال: ثم تابع الغدو فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر صفرة، فقال رسول الله ﷺ:"تزوجت"؟ قال: نعم،قال: "ومن؟" قال: امرأة من الأنصار، قال: "كم سقت؟" قال: زنة نواة من ذهب أو نواة من ذهب، فقال له النبي ﷺ "أولمْ ولو بشاة".

وقد زالت حميّة الجاهلية وثبتت الاخوّة الايمانية، وأصبح التفاضل على أساس قول الله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾.

ولقد بين النبي ﷺ في غير موضع أهمية الاخوة بين المسلمين ووجوب الترابط بينهم، ونهى عن الشحناء والبغضاء، والشقاق والخلاف والفرقة:

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ :"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا".

وروى البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: "مثل المؤمنين في توادّهم

وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى".

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:" من نفّس عن مؤمن كربة من كُرَب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه...".

وروى البخاري ومسلم عن أنس عن النبي ﷺ قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".
وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إياكم والظنّ فان الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا،ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا".

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال:" لا تحاسدوا، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله

إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحَسْب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه".رواه مسلم.

وأنزل الله تعالى على رسول الله ﷺ آيات كثيرة تنهى عن الفرقة والخلاف والشقاق وتأمر بالاجتماع على الدين والاعتصام بحبل الله المتين والثبات على صراطه المستقيم.

قال الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾، وقال تعالى: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء﴾، وقال ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات﴾.

زواجه ﷺ

وبعد بناء المسجد تزوج رسول الله ﷺ عائشة ابنة الصديق رضي الله عنها، خطبها وهي بنت ست سنين وبنى بها وهي بنت تسع سنين، (البخاري مسلم).

وتزوج رسول الله ﷺ بضع عشرة امراة، متباينات في أحوالهن وطبائعهن؛ فمنهن أم الأولاد، ومنهن العاقر، ومنهن الكبيرة ومنهن الصغيرة، ومنهن القريبة في النسب، ومنهن البعيدة، ومنهن البكر ومنهن الثيب.

وقد نقلن إلى الامة حياته الخاصة كما نقل أصحابه حياته العامة، فصار المسلم يعرف من حياة النبي ﷺ العامة والخاصة أكثر مما يعرف عن أبيه وابنه المعايش له، لانه ﷺ القدوة الحسنة لهذه الامة، قال الله تعالى :﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الاخر وذكر الله كثيراً﴾.

معيشته ﷺ.

كان بيت النبي ﷺ مثلا للبساطة والزهد وعدم التكلف، فهذه أم المؤمنين عائشة ﷺ تصف عيش النبي ﷺ قائلة: ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بُرٍّ ثلاث ليال تباعاً حتى قبض، متفق عليه.

وروى البخاري ومسلم عن عروة عن عائشة

أنها قالت لعروة: ابن أختي؛ إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، قلت: فما كان يُعِيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا انه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح، وكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا.

وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنه مشى إلى رسول الله ﷺ بخبز شعير وإهالةٍ سَنِخَةٍ، ولقد رهن النبي ﷺ درعاً له بالمدينة عند يهودي وأخذ منه شعيراً لأهله، ولقد سمعته يقول: "ما أمسى عند آل محمد ﷺ صاع برّ ولا صاع حبّ وإن عنده لتسع نسوة".

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: "ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟" قالا: الجوع يا رسول الله، قال:"وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا"، فقاموا معه، فأتى رجلاً من الانصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً

وأهلا، فقال لها رسول الله ﷺ: "أين فلان؟" قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الانصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافاً مني، قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بُسْر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ : "إياك والحلوب"، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: "والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم".

وأما فراشه وأثاثه فقد قالت عنه عائشة: "كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم من أَدَمٍ وَحَشْوُه مِنْ لِيْف"، رواه البخاري ومسلم.

ووصف عمر ﷺ فراش النبي ﷺ وأثاثه فقال: دخلت عليه ﷺ فإذا هو مضطجع على رِمَال حصير ليس بينه وبينه فراش قد أثّر الرِّمال بجنبه، متكئ على وسادة من أدم حشوها ليف، فسلمت ... ثم رفعت

بصري في بيته فوالله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر غير أهبة ثلاثة فقلت: ادع الله فليوسع على أمتك فإن فارس والروم وُسّع عليهم واعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، وكان متكئا فقال: "أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا"، فقلت: يارسول الله استغفر لي. متفق عليه.

وكان ﷺ معروفاً بكرمه وجوده وسخائه حتى قيل عنه: كان أجود بالخير من الريح المرسله، ولو كان عنده خزائن الارض لجاد بها في ليلة.

عن أبي ذر ﷺ قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حَرّةٍ بالمدينة فاستقبلنا أُحُد، فقال:" يا أبا ذر"، قلت: لبيك يا رسول الله، فقال: "ما يسرّني أن عندي مثل هذا ذهباً تمضي علي ثلاثة أيام وعندي منه دينار إلا شيء أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا" عن يمينه وعن شماله وعن خلفه. متفق عليه.

الدعوة في المدينة:

بدأت مرحلة جديدة في الدعوة حين استقر رسول الله ﷺ بالمدينة وقويت شوكة المسلمين فواجهوا قريشا في معركة بدر وهزموهم؛ فقُتِل سبعون من سادة قريش الذين كادوا للإسلام وحاربوا دعوته.

ثم كانت أُحُد؛ فانتصر رسول الله ﷺ على قريش فيها في أول المعركة، ولما خالف الرّماة أمر رسول الله ﷺ كرّت قريش، وقتل من المسلمين كثير.

ثم كانت معركة الخندق فهزم الله الاحزاب بالملائكة والريح، ثم تتابعت الغزوات والسرايا؛ فكانت الحديبية ثم خيبر، وهُزِم المسلمون يوم حنين إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئا.

وكان فتح مكة؛ فدخلها رسول الله ﷺ متواضعاً لربه قد طأطأ رأسه وشنق لناقته الزمام و كان معه عشرة آلاف مقاتل، واستسلمت قريش، فعفا عنهم ﷺ.

وكان حول الكعبة ثلاث مئة وستين صنما؛ فكسرها ﷺ جميعا، ولم يُبْق شيئا منها لتأليف قريش،

إذ لا تأليف بالتغاضي عن الشرك، ولكنه ترك الكعبة على بنائهم المبتدع على غير قواعد إبراهيم عليه السلام تأليفاً لهم لأن هذا الامر دون الشرك، وقد قال الله تعالى: ﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾. سورة النساء، آية: ٤٨ و١١٦.

فرُفعت راية التوحيد، وأُبيدت الأنصاب والأصنام والمقامات والمزارات، ودَخَل الناس في دين الله أفواجا.

تعليمه ﷺ لأصحابه:

رغم انشغال رسول الله ﷺ بالجهاد، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وحتى ينقطع دابر الشرك وأهله، إلا أنه كان دائما مع أصحابه مخالطاً ومعلّماً لهم على اختلاف أحوالهم وأعمارهم، لا يترك موطناً من مواطن الزلل أو الخطأ إلا أصلحه وبيّنه، ولا موطناً من مواطن الخير إلا حثّهم عليه ورغّبهم فيه.

وصف الصحابة رضوان الله عليهم مشاركة النبي ﷺ حياتهم حضرها وسفرها، وتَفَقُّده أحوالهم

الخاصة والعامة، فقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ: إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر وكان يعود مرضانا ويتبع جنائزنا ويغزو معنا ويواسينا بالقليل والكثير، رواه أحمد.

وكان ربما حضر الطعام معه الأعرابي حديث العهد بالاسلام، أو الغلام والجارية ممن لا يعرف آداب الطعام والشراب فيأخذ ﷺ بأيديهم ويعلّمهم.

روى أحمد عن حذيفة قال: كنا مع رسول الله ﷺ فأُتي بطعام، فجاء أعرابي كأنما يطرد، فذهب يتناول فأخذ النبي ﷺ بيده، وجاءت جارية كأنها تطرد فأهوت فأخذ النبي ﷺ بيدها، فقال النبي ﷺ: "إن الشيطان لما أعييتموه جاء بالأعرابي والجارية يستحلّ الطعام إذا لم يذكر اسم الله عليه، بسم الله كلوا"، ورواه مسلم بلفظ آخر بمعناه.

وروى البخاري ومسلم عن عمر بن أبي سلمة قال: كنت غلاما في حِجْر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصفحة، فقال لي رسول الله ﷺ: يا غلام، سمّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك، فما زالت تلك

طعمتي بعد.

وكان يبرز للناس كلهم ويبايع الوفود بيده ولا ينيب عنه أحداً من اصحابه، ولا يكتفي برئيس الوفد بل يبايعهم واحداً واحداً، وأحياناً يجئ الرهط من الناس ليبايعوه على الاسلام فيرى على أحدهم شيئا من مظاهر الشرك من بقايا الجاهلية؛ فيأبى أن يبايعه حتى يزيله.

روى الامام أحمد عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد فقالوا: يا رسول الله بايعت تسعة وتركت هذا؟ قال: "إن عليه تميمة"، فأدخل يده فقطعها فبايعه، وقال: "من علق تميمة فقد أشرك".

وكان ﷺ يداعب الاطفال: عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقا، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير، فكان إذا جاء رسول الله ﷺ فرآه، قال: "أبا عمير، ما فعل النُّغَيْر؟" قال: فكان يلعب به. متفق عليه.

وكان ﷺ يعلّم الاطفال بما يناسب حالهم: روى

أهل السنن عن أبي رافع بن عمرو الغفاري قال: كنت غلاماً أرمي نخل الانصار فأُتي بي إلى النبي ﷺ، فقال:"يا غلام لِمَ ترمي النخل؟" قلت: آكل، قال: "فلا ترم النخل، وكل مما يسقط في أسفلها"، ثم مسح رأسي فقال: "اللهم أشبع بطنه". وفي رواية للترمذي: "أشبعك الله وأرواك". وربما لحقه الاطفال فأركبهم معه على بغلته. فعن إياس عن أبيه قال: لقد قُدْتُ بنبي الله ﷺ والحسن والحسين بغلته الشهباء حتى أدخلتهم حجرة النبي ﷺ هذا قدّامه وهذا خلفه، رواه مسلم.

بل ربما ترك الخطبة ونزل من المنبر وحمل الطفل ثم أتمّ خطبته:

فقد قال عبد الله بن بريدة: سمعت أبي بريدة يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال: "صدق الله: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾، فنظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما". رواه أحمد وأهل السنن.

وكان يرسل البُنيّات الصغيرات يلعبن مع عائشة رضي الله عنها.

عن عائشة رضي الله عنها قال: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ وكان لي صواحب يلعبن معي فكان رسول الله ﷺ اذا دخل يتقمعن منه فيُسرِّبهُن إلي فيلعبن معي، رواه البخاري ومسلم.

أمّا خدمه ومواليه فلم يكن يكلّفهم من العمل ما لا يطيقون، ولم يُبكّتْهم يوماً أو ينهرهم أو يضربهم. قال أنس: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلُقاً فأرسلني يوما لحاجة فقلت: والله لا أذهب وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ فخرجت حتى أمرّ على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول اللهﷺ قد قبض بقفاي من ورائي قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: "يا أُنيس، أذهبت حيث أمرتك"؟. قال: قلت: نعم أنا أذهب يا رسول الله، قال أنس: والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعته: لِمَ فعلت كذا وكذا؟ أو لشيء تركته: هلاّ فعلت كذا وكذا؟ متفق عليه، واللفظ لمسلم.

وكان يهتم بالتعليم في كل أحيانه.

يقول معاذ بن جبل: كنت ردف النبي ﷺ على حمار يقال له: عفير، فقال: "يا معاذ"، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة، فقال: "يا معاذ"، قلت: لبيك رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة فقال: "يا معاذ بن جبل"، قلت: لبيك رسول الله وسعديك. قال: "هل تدري ما حقّ الله على عباده وما حقّ العباد على الله"؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذّب من لا يشرك به شيئا"، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: "لا تبشرهم فيتكلوا"، متفق عليه.

وقد أرسل ﷺ معاذاً لدعوة أهل اليمن وبيّن له منهاج الدّعوة وترتيبها؛ فقال له: "إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا: أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد

فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتّق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب". متفق عليه.

وقد اختار ﷺ من أساليب التعليم أحسنها وأفضلها، وأوقعَها في نفس المخاطب وأقْرَبَها إلى فهمه وعقله، وأكثَرها وضوحاً، فتارة يؤكد لهم التعليم بالقسم، وتارة بالتكرار، وأخرى بالنداء، وأحيانا بإبهام الشيء لحمل السامع على السؤال عنه، كما في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "اجتنبوا السبع الموبقات"، قالوا: يارسول الله وما هنّ؟ قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتّولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات"، متفق عليه.

وأحيانا كثيرة يخوّفهم من الوقوع في الشرك والكفر، فقد روى سعد بن عبيدة أن ابن عمر سمع رجلا يقول: لا والكعبة فقال: ابن عمر: لا يُحلف بغير الله فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:" من حلف بغير

الله فقد كفر او اشرك"، رواه أحمد وغيره.

وأحيانا يأتي الاعرابي فيسيء القول والفعل، فيقابله رسول الله ﷺ بحسن الخلق والحلم والصبر فيعلّمه ويَصِلُه.

في الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذة شديدة، قال أنس: فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثّرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء.

ولكنه إذا سمع من أحد المسلمين كلمة تُفْضِي به إلى الشرك، غضب عليه وزجره ونهره، ولم يعذره بحسن نيّته، فقد روى الإمام أحمد وجَمْع من المحدثين أنه قال: "أجعلتني لله ندّاً ؟" لمن قال له: ما شاء الله وشئت.

وروى الإمام مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: "بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله"

لمن خطب عنده فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى.

فلم يغضبْ رسول الله ﷺ لنفسه، ولكنه لما سمع كلمة تفتح باب الشرك غضب لله عز وجل، لأن أهمّ ما بعث به، بل أساس بعثته ومن قبله من الرّسل نبذ تعظيم المخلوق والتعلق به من دون الله تقرّباً واستشفاعاً به إليه، ونبذ الخرافات والمبتدعات، والجدّ في تنفيذ أحكام الشريعة المكمّلة للدين، المزكّية للنفوس، المصلحة للأحوال كلها دينها ودنياها، ومدار ذلك على وحي الله وشرعه وسنة نبيه ﷺ.

وإذا سمع رسول الله ﷺ بمنكر انتدب له رجلا من صحابته لإزالته، فقد بعث علي بن أبي طالب ﷺ بمهمّة عظيمة، وهي تسوية القبور المرفوعة بالارض، وطمس التماثيل والصور.

روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ، "أن لا تدعَ تمثالاً إلاّ طمسته، ولا قبراً مُشْرفا إلاّ سويته"، وفي رواية قال:

"ولا صورة إلاّ طمستها".

وكان رسول الله ﷺ يعمّ الناس بعلم الشريعة، ولا يخص بشيء منه أحداً دون أحد.

ففي صحيح مسلم عن أبي الطفيل قال: سئل علي ﷺ: أخصَّكم رسول الله ﷺ بشيء؟ فقال: ما خصّنا رسول الله ﷺ بشيء لم يعمّ به الناس كافة، إلا ما كان في قراب سيفي هذا، قال: فأخرج صحيفة مكتوب فيها:"لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من سرق منار الأرض، ولعن الله من لعن والده، ولعن الله من آوى مُحْدِثا".

ولم يتوقف رسول الله ﷺ عن الدعوة والتعليم حتى في مرض موته:

ففي البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لمّا اشتكى النبي ﷺ ذكرَتْ بعض نسائه كنيسة رأينها بأرض الحبشة يقال لها: مارية، وكانت أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما أتتا أرض الحبشه فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها، فرفع رأسه فقال: "أولئك اذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره

مسجداً ثم صوّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله".

وقال مراراً في مرض موته: "لعن الله اليهود والنّصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" متفق عليه.

فعلى الرغم من مرضه وحضور أجله؛ حذّر أهله وصحابته -وهم الصفوة- من الشرك وبيّن ضلال أولئك الذين يتخذون قبور الانبياء والأولياء والصالحين مساجد، وهي أوثان المشركين منذ قوم نوح عليه السلام.

ولكن فيما دون الشرك كان رؤوفاً بالمؤمنين رحيماً بهم يعذرهم بجهلهم، ويبيّن خطأهم بإحسان، ويرفق بهم.

فعن أنس بن مالك ﷺ قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه! مه! قال رسول الله عليه وسلم "لا تُزْرِموه، دعوه" ، فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: "إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما

هي لذكر الله عزّ وجلّ والصلاة وقراءة القرآن"، ثم أمر رجلا من القوم فجاء بدلو من ماء فشنّه عليه، رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي قال: بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واثكل أمّياه، ما شأنكم تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم؛ فلما رأيتهم يصمّتونني سكتّ، فلما صلّى رسول الله ﷺ؛ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلّما قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: "إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شي من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن"، أو كما قال رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله إني حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالاسلام، وإنّ منّا رجالاً يأتون الكهّان؟ قال: "فلا تأتهم" ، قال: ومنّا رجال يتطيّرون؟ قال: "ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يَصُدَّنّهم"،- قال ابن الصّباح: فلا يصدنكم - قال: قلت: ومنّا رجال يَخُطّون،

قال: "كان نبي من الانبياء يَخُطُّ فمن وافق خطّه فذاك". قال: وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قِبَل أُحُد والجوّانية، فاطلعت ذات يوم فاذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكة فأتيت رسول الله ﷺ فعَظَّم ذلك عَليَّ قلت: يا رسول الله أفلا أُعتقها؟ قال: "ائتنى بها"، فأتيته بها فقال لها: "أين الله؟" قالت: في السماء، قال: "من أنا؟" قالت: أنت رسول الله، قال: "أعتقها فإنها مؤمنة".

وقد أكّد رسول الله ﷺ نهيه عن إتيان الكهان في موطن آخر فقال: "من أتى كاهنا أو عرّافاً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ"، رواه أحمد والحاكم وصحّحه.

ولم يلهه موت ابنه إبراهيم عن تصحيح العقيدة.

يقول المغيرة بن شعبة: انكسفت الشمس يوم مات إبراهيم فقال الناس : إنكسفت لموت إبراهيم فقال رسول الله ﷺ: " إن الشمس والقمر آيتان من آيات

الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياتـه، فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلّوا حتى ينجلي" متفق عليه.

فبدّد النبي ﷺ بذلك أوهام الجاهلية وخرافاتها.

رأفته ورحمته ﷺ:

وقد بلغ من رأفتـه ورحمتـه أن يصعد الصّبي على ظهره وهو سـاجد يصلّي بالنـاس فيطيل السجود كراهة أن يُعْجِل الصبي.

عن عبدالله بن شداد عن أبيه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسناً أو حسيناً؛ فتقدّم رسول الله ﷺ فوضعه ثم كبّر للصلاة فصلّى، فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها، قال أبي: فرفعت رأسي وإذا الصبيّ على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس: يا رسول الله إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننّا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك؟ قال: "كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أُعْجِله حتى

يقضي حاجته"، رواه أحمد والنسائي الحاكم.

وروى النسائي عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ كان يصلّي وهو حامل أُمامة فإذا سجد وضعها وإذا قام رفعها.

بل إن رأفته ورحمته بالناس تحمله على تخفيف الصلاة بسبب بكاء صبيٍّ مراعاة لحزن أمّه.

عن أنس ابن مالك قال: قال رسول الله ﷺ "إني لأدخل في الصلاة وإني أُريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز في صلاتي مما أعلم لِوَجْد أمّه ببكائه" رواه البخاري ومسلم.

وكان ﷺ لا يملك دمع عينيه من شدة الرحمة.فعن أنس بن مالك ﷺ قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القَيْن وكان ظئراً لإبراهيم عليه السلام فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبّله وشمّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يَجُوْد بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: "يا ابن عوف إنّها رحمة"، ثم أتبعها بأخرى، قال ﷺ: "إن

العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون"، متفق عليه واللفظ للبخاري.

كمال الرسالة وموت الرسول ﷺ

كمال الرسالة:

في يوم عرفة من حجة الوداع قبيل وفاة رسول الله ﷺ أنزل الله عليه قوله عز وجل: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا﴾، فيما رواه البخاري ومسلم.

قال ابن كثير في تفسيرها: هذه أكبر نِعَم الله تعالى على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم ﷺ، فلهذا جعله الله تعالى خاتم النبيين وبعثه إلى الإنس والجنّ، فلا حلال إلا ما أحلّه، ولا حرام إلاّ ما حرّمه، ولا دين إلا ما شرعه، أهـ.

ولأن الله قد أكمل لنا ديننا وأتمّ نعمته به علينا ورضي لنا الاسلام دينا، فاننا لا نحتاج إلى

زيادة في الدين أبداً، فمن ابتدع في الدين بدعة فكأنّما ادّعى نقص الدين وحاجته إلى الزّيادة وجحد نعمة الله العظمى بهذه الآية التي بين الله بها كمال الدين.

قال رسول الله ﷺ: "من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد" أي مردود عليه. متفق عليه.

وقال رسول الله ﷺ: "وإياكم ومحدثات الامور، وإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة"، رواه أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم.

فلا يجوز لمسلم يؤمن بنعمة الله عليه بكتابه وسنة رسوله ﷺ، بعد معرفته بوحي الله إلى نبيه في هذه الآية والأحاديث الصحيحة الصريحة أن يبتدع في دين الله مالم يكن عليه عمل النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم، أو يتبع ما ابتدعه الناس بعدهم، فيعبد الله بما لم يعبدوه به، بحجة أن ذلك بدعة حسنة، والرسول ﷺ يقول: "كل بدعة ضلالة".

وإيمان المسلم ورضاه بما شرع الله له، ومحبته لله ورسوله، بل مجرّد إسلامه، يقتضي الاتّباع وينفي الابتداع، ولن يعبُد الله إنس ولا جنّ، منذ بعثة

محمد ﷺ إلى قيام الساعة، بأفضل ولا أصحّ مما عبدَه به رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون، قال ﷺ: "عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ"، رواه ابو داود والترمذي.

موت رسول الله ﷺ:

في السنة العاشرة حج ﷺ بالناس، وبعد رجوعه من الحج نزل به المرض بأبي هو وأمي ﷺ ثم اشتد وجعه حتى انتقل إلى جوار ربه جل وعلا في السنة الحادية عشرة للهجرة.

روى البخاري أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: إن رسول الله ﷺ كان بين يديه رَكوة أو علبة فيها ماء يشك عمر فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه ويقول: "لا اله الا الله إن للموت سكرات"، ثم نصب يده فجعل يقول: "في الرفيق الاعلى" حتى قبض ومالت يده.

قال ابو عبدالله: العلبة من الخشب والركوة من الأدم.

أخر وصاياه لأمته:

إن نبي الهدى ﷺ الذي يشق عليه ما يشق على أمته، الحريص على هدايتهم، الرؤوف الرحيم بهم كما وصفه ربه، اهتم في آخر لحظات حياته بتكرار الوصية بأهمّ ماأرسله الله به؛ التحذير من الشرك الأكبر: تعظيم القبور والمقبورين من الأنبياء والصالحين، واتخاذ القبور مساجد ومزارات ومشاهد، واتخاذ المقبورين أولياء من دون الله تقرباً إليه تعالى بمعصيته والإشراك به.

وقد أوصى ﷺ عند موته بوصايا عظيمة وأمور مهمة كان يخشاها ﷺ على أمته، وقد وقع ما كان يخشاه ﷺ فقد تهاون الناس بوصيته، وبما كان نهى عنه حتى انتشر ذلك بين الناس وصار بعض من يُنسبون الى العلم لا ينكرونها بسبب كثرتها وفُشوّها وإلْفَتِها.

فإليك أخي الكريم آخر وصاياه، فأرع لها سمعك رعاك الله وحفظك، وافتح لها قلبك فتح الله لك أبواب الخير.

أولاً: أهم ما أوصى به: تكرار النّهي عن اتخاذ القبور مساجد خشية أن يفعل المسلمون بقبره وبقبور الصّالحين ما فعلوه، وقادهم كما قاد مَنْ قبلهم إلى الشرك الأكبر من دعاء الأموات وإشراكهم بذلك مع الحي الذي لا يموت. وقد بلغت مخالفة وصيته بالمسلمين أن أدخلوا قبره في مسجده ﷺ بعد زمن الصفوة القدوة من أمته: الخلفاء الراشدون، وهم من أمرنا ﷺ باتباع سنتهم.

استمع أخي في الاسلام إلى أمك عائشة وهي تحدثك عن نبيك في حال وفاته فيما رواه البخاري ومسلم.

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: "لعن الله اليهود والنّصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد، قالت: ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خُشي أن يُتّخذ مسجدا.

لاحظ أخي في الاسلام أن رسول الله ﷺ قال هذا في مرض وفاته، قاله لكبار صحابته وأهل بيته خير أمّته.

وروى مسلم عن جندب قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: "إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متّخذاً من أمتي خليلاً لاتّخذت أبا بكر خليلا، ألاَ وإنّ مَنْ كان قبلكم كانوا يتّخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك".

وقد مر بنا حديث عائشة رضي الله عنها عن شرك الأولين وفيه: (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً)، متفق عليه.

وعنها أن رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة جعل يلقي على وجهه طرف خميصة له فاذا اغتنم كشفها عن وجهه وهو يقول: "لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" تقول عائشة رضي الله عنها يحذر مثل الذي صنعوا، متفق عليه.

وعن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: آخر ما تكلّم به النبي ﷺ : "... واعلموا أن شرار الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"، أخرجه

أحمد وغيره، وصحّحه الألباني في: تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد.

ثانياً: بيّن للناس منزلة خليفته من بعده أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأنّه لا يوازيه أحد من صحابته في منزلته كائناً من كان.

عن ابن عباس ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأسه بخرقة فقعد على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "إنه ليس من الناس أحد أمنَّ عليّ في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن خُلَّة الاسلام أفضل، سدّوا عنّي كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر"، رواه البخاري.

وروى البخاري ومسلم عن أبي موسى قال: مرض النبي ﷺ فاشتد مرضه فقال: "مروا أبا بكر فليصلّ بالناس"، قالت عائشة: إنه رجل رقيق إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلّي بالناس، قال: "مروا أبا بكر فليصلّ بالناس" فعادت، فقال: "مري أبا بكر فليصل

بالناس فإتكن صواحب يوسف" فأتاه الرسول فصلّى بالناس في حياة النبي ﷺ.

واستخلافه في الصلاة دليل واضح على أحقيته -قبل غيره- بالخلافة والإمامة والولاية.

وروى البخاري عن أنس بن مالك الأنصاري - وكان تَبِع النبي ﷺ وخَدمَه وصَحِبه - أن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة؛ فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسّم يضحك فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليَصِل الصّفّ، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة؛ فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتمّوا صلاتكم، وأرخى الستر فتوفي من يومه.

ثالثاً: أوصى بالصلاة، ولعظم شأن الصلاة تجد أخى في الاسلام هاديك بإذن الله ﷺ يأمرك بها في حال غرغرة الروح، في اللحظة التي ينسى فيها الإنسان نفسه من شدة سكرات الموت، ولكن نبينا ﷺ في هذه الساعة

العظيمة الحرجة يؤكد فرض الصلاة ومنزلتها وعِظَم شأنها، فهي أهم العبادات بعد توحيد الله ونفي الشريك عنه في عبادته وفي أسمائه وصفاته وأفعاله.

عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي توفي فيه: "الصلاة، وما ملكت أيمانكم"،فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه، رواه أحمد و ابن ماجه.

ولهذا جُعلت الصلاة هي الفاصل بين الكفر والاسلام، فقد قال ﷺ: "بَيْن الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة". رواه مسلم عن جابر، وقال ﷺ: "العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر"، رواه أحمد و الترمذي والنسائي وابن ماجه.

وقال عبد الله بن شقيق: كان أصحاب النبيﷺ لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة، رواه الترمذي.

رابعاً: النهي عن الاختلاف والشقاق بين المسلمين فقد أمر جريراً أن يستنصت الناس ثم قال رسول الله ﷺ:

"لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض"، متفق عليه.

وقال الله تعالى:﴿ إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾، سورة الأنعام، آية:١٥٩.

جمع الله قلوب المسلمين على توحيد الله لا شريك له واتّباع منهاج النبوة المعصومة في الدين والدعوة اليه.

وصلى الله وسلم على عبدالله ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
خطبة الكتاب	١
المقدمة	٢
بيت الله الحرام – مهد البعثة	٦
سبب البعثة – الاشراك بالله في عبادته	٢٠
سبب عبادة الأوثان	٢١
العرب وشريعة إبراهيم	٢٢
محمد ﷺ قبل البعثة	٢٧
تهيئته لحمل الرسالة	٢٩
بعثة محمد ﷺ	٣٢
السابقون الى الاسلام	٣٨
الجهر بالدعوة	٤١
مقاومة الدعوة	٤٥
الهجرة الى الحبشة	٤٨
الحصار	٤٩
دعوة القبائل	٥٣
بيعة العقبة	٥٧
الهجرة الى المدينة	٦١
جماعة المسلمين في المدينة	٧٠
الدعوة في المدينة	٨٤
تعليمه ﷺ لأصحابه	٨٥
كمال الرسالة وموت الرسول ﷺ	١٠٠